ستديو ثقافة شعبية

منظر الشارع الجديد من الباب الشمالي (باب المعظم)

نساء يغربلن الارز

من المحرر

النساء في الثقافة الشعبية

باسم عبد الحميد حمودي

تقودنا ذكورية معظم البحوث في الثقافة الشعبية في كل مكان وعصر الى القول أن قوى الرواية والفعل المهيمنة على حقبة طويلة من تاريخ البشرية هي قوى الرجل الذي تتم عن طريقه صناعة معظم الاحداث وروايتها واسباغ الرأي حولها، لكن التاريخ الفولكلوري للامم والشعوب يظل (تاريخا) لا يقف على قدميه الا بحركة المرأة والرجل في آن واحد، فاذا كانت المرأة هي الجنس الاضعف حربيا وسياسيا فهي الجنس الاكثر قدرة على حلب الطبيعة وتغييرها لصالحها حتى ليعتقد ان اكتشاف النار واهميتها يعد اكتشافا ثم استخداما نسائيا بالدرجة الاولى كما ان الزراعة قد فعلت على يدي النساء لا الرجال الذين ظلوا فترة طويلة يعملون في مهنة الصيد.

ما اردنا قول بعضه ان البنية الحضارية الاجتماعية في حدودها العملية الاسرية قد انبنت على سواعد النساء اللواتي اعطين للحضارة الانسانية مداليلها الجميلة الاولى وان قفزات التاريخ العلمية التي تمت فيما بعد كانت حقلا مشتركا للجنسين لكن الرجل ظل عنصرا مهيمنا . بحكم وضعه التاريخي والمادي والعضلي . على الصياغات الحضارية لفترة طويلة والامل كبير ببحوث اوفر في مجمل التاريخ الاجتماعي . الانساني تظهر حركة المرأة الخفية في مسيرة الثقافة الشعبية على وجه الخصوص ومسيرة الحضارة الانسانية بوجه اعم.

من منشورات (المدى)

الحياة والحب في مجتمع الطوارق

بثينة شعبان

هذا الفصل جزء من فصول كتاب (المرأة والجنسانية في المجتمعات الإسلامية) الذي اشرفت عليه التركية بينار ايلكاركان وكتبت مقدمته واسهمت فيه مجموعة من الباحثات من الدول الاسلامية وترجمه معين الامام واصدرته دار (المدى) في دمشق سنة ٢٠٠٤ وهو فصل يكشف عن الوضع الاجتماعي للمرأة عند الطوارق.

في ذلك الصباح تركت النساء في مطارقسنطينة ملتحفات بالتشادور الاسود، وقد سترن وجوههن بالكامل (فيما عدا العينين) بقطعة من القماش الابيض المثلثة الشكل، لأصل هنا في تامنراست (مازلت في الجزائر!) وأجد ان الرجال . وليس النساء . هم الذين يرتدون النقاب! ليس ما أراه صورة من الجنوب الغامض، ولا لوحة من الماضي الغابر، بل رجل من لحم ودم يتقدم نحوي وقد ستر بالفعل شعره ووجهه، تاركا عينيه فقط بغير غطاء، وهو يلبس على ما يبدو حجابا سميكا كبير الحجم ومدور الشكل. سارت الى جانبه امرأة كشفت عن وجهها ليداعبه الهواء المنعش البارد الذي ينسم مع وقت الغروب بجماله المذهل في الصحراء. شاليفه ستكون مترجمتي والرجل "المحجب" الذي يرافقها هو زوجها، محمود. المفاجأة الاولى كانت بمثابة اشارة دلالية على مفاجآت اخرى كمنت في انتظاري في تلك الرحلة القصيرة الساحرة. التي علمتني الكثير، الى جبال الهوجار الموطن التاريخي لقبائل الطوارق.

في غمرة بحثي اليائس عن موضوع استهل به الحديث مع امرأة بدا مظهرها، ولهجتها، واسلوب حياتها مختلفا نوعا ما، وجدت نفسي ابدأ بالسؤال الذي طالما أردت ان يوجه الى النساء. فبغض النظر عما اذا كن مهندسات، او طبيبات، او حتى وزيرات، فان النساء يصنفن عادة تبعا لوضعهن العائلي وحسب . متزوجات او عازبات، امهات او لا اطفال لهن. وها انا ذا اتبنى بوعي الموقف الشوفيني، ربما لأنني لست متأكدة بأن هذا السؤال هو الذي يرجح طرحه دائما. ولهذا، قلت وانا اعلم بأن ربما لا تتجاوز السادسة والعشرين من العمر: "هل انت متزوجة؟".

اجابت بنبرة واقعية: "ليس الآن. لكنني تزوجت اربع مرات". صعقت وكدت اسقط من فوق الكرسي بسبب نبرتها اللامبالية والابتسامة المتهكمة التي صاحبت جوابها. وبينما كان ضغط الدم في عروقي يرتفع وينخفض من شدة التفكير بمعاناة اربع زيجات واربعة "طلاقات" وكل العذاب الذي مرت به هذه المرأة الشابة، نظرت إلي وعلى محياها ابتسامة فضولية، وقد حززت على ما يبدو مايدور بفكري. قالت: "معظم نساء قبائل الطوارق يتزوجن خمس او ست مرات. نحن لا نرى في ذلك امرا غريبا". ثم استرخت وروت لي قصة حياتها، وقد وجدتها، بعد استقصاءاتي اللاحقة، قصة نمطية تجسد حياة جميع النساء في قبائل الطوارق.

"حين كنت في حوالي التاسعة من العمر، تركت والدتي منزلنا لتعيش مع رجل اخر احببته اكثر من والدي. بقيت مع والدي وشقيقتين اصغر سنا. ومع ان امي كانت تزورنا بانتظام، الا انني اشتقت لها كثيرا. كان والدي بائسا ايضا لانه لم يرغب بذهابها، لكن لم يكن بيده امر رحيلها. فقد قالت له ببساطة انها لم تعد تحبه وهي مغرمة برجل اخر، ثم وجهت اليه السؤال المروع: هل يرغب بان تبقى معه في مثل هذه الظروف؟.

كان عليه ان يجيب بلا. وبدوره، اضطر والدي لمغادرتنا لفترات طويلة والسفر مع القوافل التي تعبر الحدود ذهابا وايابا الى النيجر ومالي حيث تقايض "الشيح" (نوع من الشاي) بـ "البشنه" (نوع من القمح) والملابس كان في واقع الامر متلهفا على تزويجنا والتخلص من مسؤوليته الابوية. ولهذا عندما بلغت الرابعة عشرة، بدأ يلح على تزويجي من شاب يريده. لم اكن ارغب بالزواج في الحقيقة، لكن بالرغم من ان والدي لم يجبرني فعلا، الا انه ضغط علي باستمرار الى ان حصل على موافقة اجبارية مني. لكنني لم امض سوى ليلة واحدة مع هذا الرجل . ولم اترك منزل والدي ابدا.

في قبائل الطوارق، تمضي المرأة سنة زواجها الاولى في بيت امها (بيت "الام" يعني بيت "الوالدين")، كي تجد الوقت الكافي لتجهيز خيمتها، وتزيينها، وتحضير نفسها لحياتها الزوجية في المستقبل بشكل مناسب. وكل نساء الطوارق تقريبا يضعن الطفل الاول في منازل امهاتهن. وفي الحقيقة هنالك نسبة معتبرة منهن لا ينتقلن ابدا الى بيت الزوج الاول . لانهن يحصلن على الطلاق قبل انقضاء العام الاول، ناهيك عن تدخل الوالدين عادة بشؤون اول زواج لابنتهما. لكن ما ان تحصل الطوارقية على طلاقها الاول، حتى تصبح حرة في الزواج بمن ترغب دون استشارة احد. اما المنطق الكامن وراء ذلك (حسبما شرح لي عدد من الآباء والامهات فيما بعد) فهو ان الفتاة التي لم تعرف الرجال بشكل حميم لا يمكنها اختيار الزوج الاول، لكن حالما تمر بتجربتها الاولى مع الرجل، يمكنها العناية بشؤونها بصورة جيدة. تابعت تيتا قائلة "لهذا السبب، يعتبر الزواج الاول لمعظم النساء، هنا ضروريا فقط للتخلص من سلطة الأسرة ومن ثم الزواج حسب اختيارهن".

تساءلت دون ان اتمكن من اخفاء قلقي: "لكن ماذا عن اجراءات الزواج والطلاق؟".

"حسن اجراءات الزواج والطلاق بسيطة جدا. اذ لا نسجل الزواج في الدوائر الحكومية.ما عليك سوى اخذ اربعة شهود معك وزيارة اقرب طالب (الزعيم الديني المحلي للقبيلة) ثم الاعلان في حضوره انك ستتزوجين او تطلقين هذا الرجل او ذاك.

"بعد طلاقي من زوجي الاول، قال لي رجل اخر انه يحبني. لم اكن مغرمة كثيرا، لكنني كنت اشعر بالوحدة لذلك تزوجته. لكن بعد سنة او نحوها، سقطت في غرام جار لنا توضح لي ان ما يجب فعله هو تطليق زوجي الثاني والزواج من اول رجل احببته حقا، وهذا بالضبط ما فعلته. مع هذا الزوج الثالث امضيت سنتين من اسعد سنوات عمري انجبت خلالهما طفلين. لكن لسوء حظي، لم يمض وقت طويل حتى ظهرت امرأة جميلة في حياته، وهكذا طلقني وتزوجها. على الرغم من انني لم اكن لالومه حقا، لانه فعل نفس ما فعلته بزوجي الثاني، الا انني شعرت بالتعاسة والبؤس.

بأنني عاهدت نفسي الا اتزوج مرة اخرى لانني لم احتمل مثل هذا الجرح والالم. لكن قبل مرور عامين، نكثت بعهدي وتزوجت من رجل لم اعرفه الا قليلا، عشنا معاً لبضعة اشهر قبل ان يذهب الى ليبيا ولم يعد من هناك ابدا. عزائي الوحيد انني كنت قادرة دوما على الاحتفاظ باطفالي".

امرأة طوارقية اخرى كانت تستمع لقصة تيتا، سألتها عن شقيقتها وعما اذا انجبت طفلا. اجابت تيتا باقتضاب: "طفلة" ، وقد حرصت بلهف كما بدا لي على تغيير الموضوع.

ارتباكها الظاهر وحرجها اثارا فضولي. سألت تيتا: "هل شقيقتك متزوجة"؟.

اجابت: "لا"، وهي تفرك راحتيها وتنظر اليهما بأسى.

سألت بسذاجة: "كيف انجبت طفلة اذن؟". ما قصدته هو "كيف لها ان تنجب خارج اطار مؤسسة الزواج في دولة عربية؟".

اجابت تيتا: "كانت على علاقة برجل تبين انه غير قادر على تحمل المسؤولية؛ وفي حين ان اختي كانت جادة في علاقتها معه، كان هو يتسلى. حملت منه وانجبت الطفلة؛ ما الذي بمقدورها فعله غير ذلك؟ وهي الآن تربي ابنتها مع اطفالي".

لم استطع منع نفسي من السؤال: "لكن ماذا يقول الناس عنها؟".

" لاشيء؛ ماذا بامكانهم ان يقولوا؟ حين يرى بعضهم الطفلة، يهمسون قائلين: يا للعار، الطفلة بحاجة الى ابيها. لكن على وجه العموم، فان معظم الناس هنا ينظرون بازدراء عميق الى الرجل الذي تحبل منه المرأة ثم يرفض ان يكون ابا لطفله ضمن اطار علاقة الزواج العادية. واذا ما كان لاي شخص ان يشعر بالعار، فهو الرجل وليس المرأة.

أذهلني ما سمعت، لكني حاولت ان اخفي المفاجأة كي يستمر حديثنا. قلت: "لكن الا يحدث شيء للمرأة؟".

قالت تيتا: "حسن، ماذا بمقدورنا ان نفعل؟ نحن نحاول مساعدتها على تربية طفلتها".

حاولت ان اشرح بالقول. "ما قصدته هو ان الام غير المتزوجة تتعرض للاضطهاد والمضايقة في البلاد العربية الاخرى؛ بل قد تتهم بجلب العار على شرف الأسرة".

"واذا ظننتم انها مذنبة بذلك، تحاولون اضطهادها ومضايقتها؟؟؟!! في قبيلتنا نحاول دوما اتخاذ التدابير الاصلاحية وليس العقابية الام العزباء قد تكون عضوا مفيدا جدا للمجتمع واما صالحة ايضا".

كانت مفاجأة عظيمة بالنسبة لي ان اجد مكانا في العالم العربي تتعامل فيه التقاليد الاجتماعية على ما يبدو بكثير من العقلانية مع الامهات غير المتزوجات كفئة اجتماعية. وحتى مع هذه الحالة، كان ما سمعته مختلفا اشد الاختلاف عما توقعت ان اجده هنا. لكن يبدو ان هذه النسخة التأويلية من الاسلام بسيطة جدا، ولا تتناقض مع المبادئ الاخلاقية للانسانية، والحب، والعاطفة الصادقة. وفي الحقيقة، فان كل شيء هنا، في هذه البقعة الجميلة من الصحراء، يبدو نقيا، وبسيطا، وسهلا على الفهم.

جلست مترجمتي وزوجها في السيارة بانتظاري خارج الفندق. كانت شاليفه ترتدي ثوبا طويلا من قماش ازرق مشرق، بدا شديد الشبه بالساري الهندي، اما الفرق الوحيد فهو انه لا يعري الخصر. كما وضعت "مكياجا" ازرق اللون . "احمر" شفاه ازرق، وظل عيون ازرق، وحتى لون ازرق فاتح على الوجنتين. وفي خضم هذا البحر الازرق، بدت عيناها السوداوان الواسعتان اكثر دكنة وعمقا من اي زوج من العيون رأيتها في حياتي. اما شعرها الاسود الطويل فقط غطت جزءا منه بوشاح ذهبي ربطته خلف عنقها. وبدا وشاحها الزاهي. والمشغولات النصية البراقة التي ارتديها حول عنقها وفي اصابعها.

ما ان بدأت السيارة تتحرك حتى التفت محمود ليتحدث الي من حيث يجلس في المقعد الامامي. قال: "لسوف نأخذك اليوم الى تيغمار، وديرهينانين، واذا امكن الى عسكرم، بحيث يمكنك رؤية الطوارق الاصليين، وليس المهاجرين من النيجر ومالي الذين يتظاهرون امام السياح الفرنسيين بأنهم من الطوارق ويقدمون معلومات مضللة الى كتاب الفلكلور الفرنسيين عن تقاليدنا، وعاداتنا، ومبادئنا الاخلاقية. سآخذك لتري افراد قبيلة "كيل علا" المسيطرة التي حكمت الهوجار، بحيث يمكنك جمع كل المعلومات التي تحتاجين اليها من المصدر النقي الاصيل".

شاهدنا في الطريق بعض الغزلان وسألت محمود عما اذا كان الطوارق يعتمدون على الصيد كمصدر رئيس للغذاء. قال. "اجل، لكن توجد قوانين وقواعد صارمة للصيد. على سبيل المثال، لا يصطاد الطوارق الاناث، اضافة الى ان الصيد ممنوع كليا خلال بعض أشهر السنة (اعتقد، اكتوبر ونوفمبر) حين تكون اناث الغزلان في فترة الحمل، كيلا تصيب طلقة طائشة واحدة منهن". اخبرني ايضا ان الطوارق لا يأكلون ابدا لحوم جمالهم حتى وان جاعوا. اذ لا يأكل الطوارقي لحم جمله الذي سافر عليه في الصحراء، واطعمه وعايشه سنين طويلة، وشرح لي ايضا عن الاحترام الذي يكنه الطوارق للحيوانات، والنباتات، والارض، الامر الذي جعلني اشعر انه بالنسبة لهذه الجماعة من الناس يتمتع "كل ماهو طبيعي بالقداسة".

وصلنا تيغمار وتوقفنا وسط قرية تضم حوالي اربعين كوخا اضافة الى خمسة او ستة بيوت حديثة (مشيدة بالطين او الاسمنت)، وحالما خرج صحبي من السيارة، احاطت بنا نساء واطفال القرية بخلال ثوان. دعينا لزيارة منزل اكبر زوجين (سنا) في القرية، وبدا ان الجميع يتبعنا. كان المنزل مبنيا من الاسمنت لكن ارضية الغرفة الامامية الواسعة التي دخلناها كانت مفروشة بالرمل كالعادة. سارعت مضيفتنا العجوز الى مد السجاد الجزائري التقليدي الملون لنجلس عليه، لكني لاحظت ان معظم الناس يبعدون السجاجيد ويستمتعون بفرك اقدامهم بالارض الرملية. انقسم الرجال والنساء فورا الى ثلاث مجموعات كبيرة تبعا للعمر الذي مثل العامل الوحيد في تحديد المجموعات. بدأ احمد، الذي قدم معنا من تامنارست والذي كان على ما يبدو صديقا مقربا من العائلة، بتحضير الشاي، لأن هذه المهمة من اختصاص الرجل وليس النساء في هذه القبائل.

بعد حوالي عشر دقائق من وصولنا، مرر على الحاضرين حوض جميل ومزخرف كي يغسلوا فيه ايديهم بالماء والصابون. والحوض عبارة عن "زبدية" كبيرة وكروية الشكل مصنوعة من النحاس، مع حمالتين وغطاء يقبع على بعد حوالي بوصتين من الحافة. الغطاء مثقب بحيث يسمح للماء بالمرور عبره الى قعره. وبعد حوالي نصف ساعة، احضروا لنا ثلاث صوان كبيرة من القش مليئة بالتمر مع ثلاث زبادي كبيرة من اللبن.

كانت مضيفتي طاعنة في السن، نحيفة القد، منتصبة القامة، تعلو محياها ابتسامة مرحة تنم عن ان صاحبتها قد اتمت واجباتها في الحياة. ويبدو انها من محتد كريم، اذ تنتمي الى قبيلة "مثقفة" (كيل علا)، ولذلك فهي تتحدث العربية بطلاقة.

رجال الدين والمثقفون وحدهم يتكلمون العربية. اما عامة الطوارق فيتحدثون الطوارقية.

بدأت بالقول: "سيدتي، هل تستطيعين اخباري عن حياتك كامرأة طوارقية، قبل الزواج وبعده؟".

"دعينا نبدأ بتصحيح امر واحد. انا لست عجوزا، بل اشعر بانني شابة في مقتبل العمر (لا بد انها في العقد الثامن)، واود العيش لاعوام طويلة قادمة". حين قالت ذلك، امسكت بيدي وضغطت عليهما بود وحنان، ثم اردفت: "وهذا ا يجعلك طفلة، امامك الحياة كلها لتستمتعي بها. موافقة؟".

قلت وانا احسدها على هذا النشاط والحيوية: "اجل، موافقة".

تابعت قائلة: "حسن ايتها الفتاة. اليوم الأول الذي لا أنساه في حياتي كان يوم حضت للمرة الأولى. ذاك كان اسعد يوم في حياتي. والتقليد السائد بين الطوارق هو اقامة احتفال بمناسبة العادة الشهرية الاولى للبنت. وهكذا، حين زفت النبأ الى امي، ارسلت من يعلم كافة النساء المهمات في القبيلة بالحادث السعيد ويطلب منهن تحديد موعد لـ (التندي) (احتفال كبير تشارك فيه نساء الطوارق وقد ارتدين افخر الثياب، وتزين باجمل الحلي الفضية، حين يقمن بالعزف والغناء وهن واقفات على شكل حلقة في حين تقف في مركزها امرأتان تغنيان وتدقان على الطبل. كل النساء الباقيات يصفقن ويرددن الغناء بعدها، بينما يرقص الرجال، وهم يرتدون افخر ثيابهم ايضا، على اطراف الحلقة). وكنت نجمة احتفال ضخم قدم لي الرجال خلاله الهدايا من الثياب الجميلة، والاساور، والجلود. ما ازال اتذكر الشعور بالامتياز والتفوق كوني امرأة، والاستمتاع بذلك القدر الذي لا يصدق من الحب والاهتمام لانني بلغت سن النضج. انظري الى تلك الفتاة مثلا"، واشارت الى فتاة تجلس قرب الباب، "لم تبلغ بعد سن النضج. كيف عرفت؟".

اجبت: "ليس لدي ادنى فكرة".

"انظري اليها، لا تتزين بأية حلي فضية ولا تضع المكياج على وجهها. بناتنا لا يتزين بالفضة ولا يضعن مساحيق التجميل الا بعد ان يأتيهن الطمث الاول. عندها فقط يضعن مساحيق التجميل ويتزين بالأساور والقلائد والاقراط".

"اذن الدورة الشهرية الاولى للفتاة تعتبر مناسبة سعيدة جدا بالنسبة لها؟".

قالت ضاحكة بمكر: "بل هي مناسبة اسعد بالنسبة للرجال. فقد اضيفت امرأة اخرى الى قائمة النساء المؤهلات للزواج في القبيلة".

"بعد هذه الحفلة، شعرت بأنه قد سمح لي بالدخول الى العالم الخفي والمسحور والمقتصر على البالغين كان من الممتع الشعور بقلبي الغض يكبر والاحساس بالتوق لعناق شخص اخر. وقبل ان يمر وقت طويل، بدأت قصة الحب مع زوجي الذي ترينه هناك". واشارت الى رجل هادئ مسترخ في السبعينيات من العمر.

"واستمرت القصة لمدة سبع سنوات سعيدة تزوجنا بعدها. خلال هذه السنين، فهم كل منا الآخر بشكل جيد. مثل هذه العلاقة امر مألوف وعادي في قبائلنا، ولمعظم الرجال والنساء علاقات قبل الزواج تستمر ثلاثة، او اربعة، او حتى سبعة اعوام، قبل ان تتوج بالزواج".

"هل يعرف الاهل عادة بقصص الحب هذه؟".

"بالطبع يعرفون، خصوصا الام التي تظل دوما على دراية بآخر التطورات والتفاصيل. علاوة على ان علاقة الحب ليست شيئا يمكن اخفاؤه. فكل القبيلة تعلم بها؛ وهي جزء طبيعي من حياة الناس هنا، مثلها مثل الزواج. وكل القلوب الشابة تسقط في شرك الحب الملتهب. الذي يتبين بعد ذلك انه عابر او دائم".

"هل تتطور قصة الحب هذه في أية مرحلة من مراحلها الى علاقة جنسية قبل الزواج؟".

"جنسية؟ لا، ابدا حسنا، لابد ان بعضها يصل الى هذه المرحلة، والا كيف نفسر وجود الامهات العازبات بين الطوارق؟! يسمح للعشاق بكل ما يريدون فيما عدا الجنس. فقد يتبادلون القبلات، والعناق، لكن ليس الجنس، اذ يعرف فتيان وفتيات الطوارق القواعد والحدود ويلتزمون بها. اما اولئك الذين يمارسون الحب قبل الزواج فلا يعتبرون من العشاق الحقيقيين المخلصين. فاذا ما طلب المحب من حبيبته ممارسة الجنس، فلسوف ترفض فورا وتزدريه لانها تعرف عندئذ انه يريد تمضية الوقت معها، وانه غير جاد في نيته في الزواج منها. لذلك اذا كانت تربيتها صالحة، فسوف تنهي علاقتهما فورا.

"هنالك العديد من الاشياء التي يمكن للعشاق التمتع بها دون الوصول الى مرحلة الجماع الجنسي. فاكبر العجائز عمرا في القبيلة تنظم "السهار" لكل العشاق فيها. بعد ان تدعوهم الى بيتها حوالي منتصف الليل حين ينام كل الرجال والنساء، وذلك كي يقضوا وقتا ممتعا معا ويغنوا ويرقصوا تحت وصايتها. في الليالي الاخرى الاكثر هدوءا، ينتظر العاشق حتى ينام الجميع ثم يتسلل الى خيمة الحبيبة، ويرقد قرب فراشها ويبقى هناك طيلة الليل ليبادلها الحديث والعناق، ولا يتركها الا حين يبزغ الفجر. اما اهل الفتاة فيغطون في نومهم في نفس الخيمة طبعا وهم عارفون بان حبيب ابنتهم راقد هناك. لكن ذلك يعتبر مسلكا مقبولا. فهم على ثقة بان احدا منهما لن يخرج عن المبادئ الاخلاقية والاجتماعية للقبيلة. ذكريات تلك الايام السعيدة المثيرة تلعب دورا مهما في انجاح الزواج".

"هل يصدق ذلك على علاقتك انت؟".

"أوه، أجل! كنت سعيدة جدا خلال تلك السنوات السبع الى درجة انني لم اتوقف عن حبه حتى الآن. وانا الآن انظم حفلات السهر للعشاق الصغار لانني اعرف مبلغ السرور الذي تدخله على قلوبهم ومدى الأثر الذي تخلفه في علاقاتهم المشتركة".

في أوتول، وهي بلدة اخرى في الصحراء الجنوبية، جذبت انتباهي شابة جميلة بشكل اخاذ، من بين كل النساء اللاتي قدمن لاستقبالنا باثوابهن الطوارقية. بدت هادئة الملامح ومستغرقة في التفكير، ولذلك سعيت للجلوس بجانبها، وبادائها الابتسام ثم وجهت اليها بعض الاسئلة البسيطة العمومية. وحين بدأت الكلام وجدتها اكثر جاذبية من قبل. وبعد ان تناولنا التمر واللبن كالعادة، طلبت منها أن تروي لي قصة حياتها.

استهلت فاطمة الكلام بتنهيدة عميقة: "عشت حياة صعبة حقا. وبالرغم من انني لا ابدو متقدمة في العمر لكني اشعر كأنما عشت مائة سنة. فقد توفي والدي ولما أبلغ العام، تاركا أمي واختي الأكبر سنا وأنا. وحين كبرنا وازددنا جمالا، تلهفت امي لتزويجنا في اسرع وقت ممكن. وهكذا زوجتني من رجل يكبرني بثلاثين سنة وانا لم اتجاوز الرابعة عشرة. لم يكن لدي فكرة عما يحدث لي؛ الشيء الوحيد الذي عرفته جيدا هو انني كرهت الرجل. عشت معه حوالي عامين عانيت فيهما من التعاسة والشقاء الى درجة ان عذابهما مازال يؤرق نومي بالكوابيس حتى الآن. احيانا اتساءل عن السبب الذي جعلني ابقى معه طيلة كل تلك المدة مع ان الطلاق امر متيسر في قبيلتنا. لا اعلم؛ كنت صغيرة ولم اعرف ماذا أفعل. في نهاية المطاف، تركته مع طفلي الرضيع الذي لم يتجاوز عمره الأربعين يوما حينذاك ولم اعد اليه ابدا.

"لا، مطلقا. لكن لم اتحمل رؤية وجهه. كان بائسا، وانانيا، وسكيرا، لم يهتم بي او يأبه لما أفعله. كنا نتشاجر باستمرار، وكانت الحياة معه جحيما لا يطاق".

"هل اعتدى عليك بالضرب"؟.

"يضربني؟ بالطبع لم يفعل ذلك ولا مرة".

امرأة اخرى متقدمة في السنة كانت تجلس قربنا وتستمع على يبدو لحديثنا، قاطعتنا قائلة: "لا يرفع طوارقي يده على زوجته ابدا. لقد سمعت مرة ان طوارقيا تملكته نوبة غضب حادة من زوجته فصفعها على وجهها. اشتكته الى الطالب الذي امر بتغريمه عنزة كتعويض للزوجة واجبره على توقيع وثيقة يتعهد فيها بعدم تكرار مسلكه السيئ، والا فستكون العاقبة طلاقا فوريا.

"المرأة الطوارقية لا تقبل ابدا ان تتعرض للضرب؛ هذا تصرف لا وجود له في قبائلنا . نحن لا نسمع عنه الا من المجتمع الحضري، وبالنسبة لجميع الطوارق، رجالا ونساء، يعتبر هذا امرا مخزيا، واذا حدث وضرب رجل زوجته لاي سبب كان، سوف يقابل بالازدراء من كل فرد من افراد القبيلة الى درجة تصبح فيها حياته مستحيله؛ فالعار الاجتماعي الذي يلحق به يجعله بالتأكيد شخصا منبوذا وقد يؤدي به الامر الى مغادرة القبيلة برمتها. وكانت امي تقول لي انها اذا طبخت لابي طعاما، فانها تملك الحق بطلب التعويض من "الطالب". وهذا يجبر الزوج في العادة بان زوجته هي زوجة وليست طاهية تعمل في خدمته، لذلك لم يطلب منها تحضير وجباته؟ لكن الان يقوم بمهمة الطهي الرجال والنساء معا، ويعملون في الحقل ويرعون جمالهم واغناهم معاً ويبدوان امهاتنا وجداتنا كن افضل حالا منا، ونحن افضل حالا من بناتنا".

سألت كولا، وهي عجوز اخرى، عما اذا كانت تعدد الزوجات معروفا بين الطوارق حسب علمها.

اجابت بهدوء وروية: "بالرغم من ان القرآن قد أباحه، الا انه لا توجد امرأة طوارقية تقبل الزواج من رجل متزوج، ولا تقبل امرأة البقاء مع زوجها حالما تتأكد من انه مهتم بامرأة اخرى. وهكذا، من الناحية العملية، وخصوصا بالنسبة لقبائل محترمة، مثل كيل علا وديك علي، فان تعدد الزوجات امر غير معروف. ولربما تجدينه في القبائل الاصغر والاقل شأنا، رغم انه نادر الى حد بعيد. شخصيا، لم أر في حياتي طوارقيا متزوجا من اكثر من امرأة واحدة. وحتى اولئك الرجال الذين اصيبت زوجاتهم بامراض مزمنة او لم يرزقوا باولاد، فانهم اما يبقون مع زوجاتهم او ينفصلون عنهن بالطلاق ويتزوجون مرة اخرى".

"هل اجراءات الطلاق سهلة؟".

اجابت فاطمة، مغتنمة الفرصة للانضمام الى الحديث مجددا: "أجل. اذا لم تحبي زوجك، كل ما عليك فعله هو ان ترتدي حذاءك وتقولي له (للزوج!) وداعا. ويمكن فيما بعد الاستعانة بالشهود واعلام الطالب بقرارك. واردفت: حين طلقت، مررت باسعد اوقاتي. فتبعا لتقاليدنا، تقوم ام المطلقة باخبار كل الكبار في القبيلة بان ابنتها قد طلقت، وانها ترغب بالاحتفال بطلاقها في يوم كذا. وفي التاريخ المحدد ترتدي المطلقة افخر ما لديها من ثياب، وتتزين باجمل ما تملكه من حلي فضة "مكياجها"، لتكون نجمة الحفلة، التي تعادل حفلة زواجها في كل شيء.

"كيف تقارنين وضعك كامرأة مع وضع النساء الأوروبيات؟".

"في السنوات العشرين الماضية، اصبحت منطقتنا منطقة جذب سياحي، والعديد من الناس، القادمين من فرنسا والمانيا خصوصا، يمضون عطلاتهم السنوية هنا. وشقيقي في الحقيقة متزوج من فرنسية، وامضيت انا ثلاثة اشهر في باريس لاستشارة الاطباء المتخصصين في امراض النساء حول حالة العقم التي اعاني منها على ما يبدو. لقد صدمت حقا حين اكتشفت مدى رعب نساء اوروبا من الاغتصاب، وكم من النساء اللاتي يتعرضن فعلا للاعتداء، وعدد اولئك اللاتي يحاولن الانتحار. وجدت كل ذلك مروعا لان الحقيقة الكامنة في صميم كل ذلك تشير الى الرأي البغيض الذي يعتبر النساء كائنات جنسية مستهدفة وبائسة، وضعيفة، وعاجزة. اما المرأة في مجتمعنا فلا تشعر ابدا بأنها هدف جنسي؛ بل تنال نصيبها من التقدير باعتبارها رفيقة وشريكة. والاغتصاب غير معروف في قبائلنا؛ فهو امر مروع ومخز، ولا استطيع ان اتخيل كيف يمكن لأي مجتمع في العالم ان يحتمله.

في الوقت الذي كانت فيه فاطمة تستمتع على ما يبدو بتلقيني هذا الدرس المهم عن النسوية الطوارقية، كانت عيناي مثبتتين على الحقائب الجلدية المعلقة على الجدار المقابل، وقد فتنت بألوانها البديعة واحجامها المتدرجة بين الصغير والضخم. كان هنالك الكثير من الفن، والحرفية، والذوق في صنع هذه الحقائب الى درجة انني قررت ان اسأل عن صانعها، وعما اذا كان بمقدوري شراء نموذج آخذه معي الى بلدي. اجابت ردا على سؤال: "هذه الحقائب صنعتها نساء الطوارق. بالطبع لاتستطيع كافة نساء الطوارق صنع الحقائب. لكن عددا كبيرا منهن يستطعن ذلك. قد يهمك ان تعلمي بان النساء هنا يصنعن الخيام، وحقائب السفر، والأواني الفخارية؛ وهن اللاتي ينصبن الخيام ويؤدين معظم الاعمال التي تتطلب جهدا عضليا. اما الرجال فيتعاملون مع المواد الحساسة مثل الفضة التي يصنعون منها الأساور، والخواتم، والقلائد، والاقراط المزخرفة المتقنة".

وجدت نفسي اتمتم في سري وانا اهم بالمغادرة، "يا الهي! اتساءل اين يضع كل ذلك نظرياتنا الراسخة عن الانوثة والذكورة؟".

في هذه الرحلة، خبرت اهم تجربة في حياتي، ووجدت، كامرأة، في مجتمع الطوارق نمطا فريدا من تحرير المرأة، يستمد . مع ذلك . اعرافه ومنطقه مباشرة من نفس المصدر التاريخي الذي تنهل منه كل قوانين الدول العربية، اي القرآن والسنة. لكن هناك، وعلى عكس الدول الاسلامية التي زرتها، لم يسمح لهيمنة الذكور بتشويه وتحريف التعاليم والمبادئ التراثية القديمة لتنزل الضرر بالمرأة. لقد وجدت مجتمعا اسلاميا لا يعتبر المرأة جارية للرجل ولا دونه مرتبة، مجتمعا يقدر الانجاب تقديرا عاليا بل حتى يمجده، بدل ان يجعله ذريعة تبرر الاضطهاد والاخضاع.